النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الاوَّل

تاريخ النصرانية في جزيرة العرب

هيا بنا الآن بعد هذه المقدمات الوجيزة نبحث عن النصرانية وآدابها بين عرب الجاهليَّة وهما البحثان اللذان جعلنا الفصول السابقة كتمهيد لهما

الباب الاوَّل

مبادئ النصرانية بين العرب

قلنا في مطلع كلامنا انَّ الافادات التي خلَّفها كتبة العرب عن الاديان الشائعة في جزيرتهم قبل الاسلام ثروة قليلة. وهذا القول يصحُّ ايضاً في النصرانيَّة مع انها كانت اقرب اليهم عهداً فاذا ذكروا الدين المسيحي لا يكادون يذكرون من تاريخه غير شيوعه في بعض القبائل. هذا اذا اعتبرت فصولهم الوجيزة التي خصوها بالاديان. بيد انهم في عرض كلامهم عن بعض عادات العرب وقصصهم وامثالهم ولهجاتهم تحدا بهم الامر الى ان يأتوا بمعلومات أخرى عديدة تجدها متفرقة متشتتة في تآليفهم لم يجمعها حتى الآن العلماء المستشرقون لانشغالهم بالبحث عن آلهة العرب وعن تلك رموز دياناتهم القديمة ونشر ما وجده السائحون في بلادهم من الكتابات الحجريَّة في اللغات الحميريَّة والنبطيَّة والصفويَّة فضلاً عن اليونانيَّة واللاتينيَّة او ما استخرجوه بالحفر من الآثار بعد مخاطرتهم بالحياة

وكذلك ورد في كتب نصارى اهل الشرق ولاسيما قدماء الروم والسريان وبعض الكتبة اللاتينيين فوائد شتى عن النصرانيَّة في انحاء العرب دوَّنوها في معرض رواياتهم التاريخيَّة واوصافهم الاجتماعيَّة ورحلاتهم العلمية وفي اخبار بعض اولياء الله القديسين الشهداء او النسَّاك مما رأوه بالعيان او استفادوه من شهود عيانيين او كتبة موثوق

بهم فهذه المعلومات ايضاً عظيمة الشأن غالية الاثمان لم تُجمع حتى اليوم تماماً وانما روى منها بعض الكتبة فصولاً تحتاج الى توسيع وتكملة نخصّ منها بالذكر الكتب والمقالات الآتية ما عدا ما ذكر من ذلك في التآليف التي عدّدناها في الفصل الاول:

١ اعمال البولنديين : مقالة للاب كرپنتيه اليسوعي في النصرانية بين العرب

1 E. Carpentier S. j. *De SS. Arethæ et Rufi Commentarius* (Acta SS., X, Octob., 661—697).

٢ اصول النصرانية في بلاد العرب للعلامة رَيْت

2 Wright: *Early Christianity in Arabia*, London 1855.

٣ الشرق المسيحي للاب لوكيان

3 Lequien: *Oriens Christianus*.

٤ دي ساسي: مقالة عن تاريخ العرب قبل محمّد

4 Le Bⁿ Sacy (S.): *Mémoire sur l'Histoire des Arabes avant Mahomet*.

٥ تاريخ الدول العربية بين المسيح ومحمّد

5 J. J. Reiskii: *Primæ lineæ Historiæ Regnorum Arabicorum inter Christum et Mohammedem*.

اعلم انّ اقدم الآثار النصرانيّة كما لا يخفى الاناجيل الاربعة وتاريخ اعمال الرسل للقديس لوقا ورسائل بعض تلاميذ الربّ الاوّلين. وكلها من القرن الاوّل للمسيح كما يقرّ به معظم الاباحيين فضلاً عن المؤمنين وإن كان اولئك يخالفون الكاثوليك في تعيين سنة كتابة هذه الاسفار واصحابها. فهذه الآثار لا تخلو من الدلائل على ان العرب نالوا شيئاً من انوار النصرانيّة منذ بزوغ شمسها

ولعلّ اوّل من استحقّ ان يُعظم من العرب بين تبعة السيد المسيح اولئك الشيوخ الذين عُرفوا بالمجوس فاتوا الى بيت لحم وأهدَوْه أنطافهم وسجدوا له كما اخبر متى في انجيله (ف ٢). اما كونهم من العرب او على الاقلّ بعضهم فانا على ذلك عدّة بيّنات ترجّح هذا الرأي ان لم نجزم به قطعيّاً. فمن ذلك اقدم نصوص الآباء والكتبة الكنسيين من القرن الثاني للمسيح الى القرن الخامس الذين يجعلونهم عرباً كالقديس يوستينوس في القرن الثاني في مباحثه مع تريفون. وترتوليان المعلم في كتابيه ضدّ اليهود (ف ٩) وضدّ مرقيون (ك ٣ ف ١٣). وكالقديس قبريانوس في القرن الثالث في سيره عن كوكب المجوس. وكالقديس ابيفانيوس في القرن الرابع في شرحه لدستور الايمان

(عدد ٨). والقديس يوحنا فم الذهب معاصره في الميمر الثاني على شرح انجيل متى. وهكذا فسّر هؤلاء الكتبة آية اشعيا النبي عن المسيح (ف ٦٠ ع ٦): « كثرة الابل تغشاكِ بُكرانُ مِدْيَن وعيفة كلُّهم من شبأ يأتون حاملين ذهباً ولباناً يُبشرون بتسابيح الربّ ». وسبق داود فقال (مز ٧٢): « ملوك سبأ وشبأ يقرّبون له العطايا ». فانّ مِدْيَن وعيفة وشبأ كلها تدلّ على نواحي العرب. وعليها تدلّ ايضاً الالطاف التي قدموها للمسيح اي الذهب واللبان والمرّ وكلّها من مرافق بلاد العرب. فان ذهب انحاء العرب كان مشهوراً (١ وتنبأ داود بتقدمته للمسيح (مز ٧٢) فقال: « يؤدون اليه من ذهب شبأ ». اما اللبان والمرّ فلا يكادان يُستخرَجان من غير جزيرة العرب فيتّجر بهما اهلها كما شهد على ذلك قدماء الكتبة بعد سفر التكوين (٣٧: ٢٥). ثمّ يؤيد هذا الرأي قول المجوس في الانجيل لهيرودس بانهم رأوا نجم المسيح في الشرق فاتوا ليسجدوا لهُ فقولهم « في الشرق » يدلّ على بلاد العرب اكثر من سواها لوقوعها شرقي فلسطين فضلاً عن كون العرب يُعرفون بالاسفار المقدّسة ببني الشرق (وبالعبرانية בני קדם بمعناها) بل شاع هذا الاسم عند الرومان واليونان فاشتقوا منهُ Sarraceni و Σαρακηνοί . وزد على ذلك انّ النجم الذي رآه المجوس هو الكوكب الذي سبق وانبأهم بهِ بلعام في مشارف مُوآب (سفر العدد ٢٤: ١٧) لما قال « انهُ سيطلع كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من اسرائيل ». فتحققت النبوءة حيث تنبأ بها بلعام مرغوماً فتناقل العرب نبوّتهُ ابناً عن اب وراقبوا كوكبهُ حتى رأوهُ. ولا بأس من كون هؤلاء القادمين الى مهد المسيح يُدعون مجوساً. فانّ هذا الاسم كان يطلق عند العبرانيين على حكماء الشرق عموماً وكثيراً ما اثنى الكتاب الكريم على حكمة العرب في سفر ايوب وسفر الملوك الثالث (٤: ٣٠) وسفر باروك (٣: ٢٣). وقد شهد كتبة اليونان بانّ فيثاغورس الفيلسوف رحل الى جزيرة العرب ليأخذ الحكمة عن اهلها. بل صرّح بليني الطبيعي بانّ بلاد العرب كانت بلاد مجوس (٢

---

١) قال سترابون ان الذهب لا يُعدَن في بلاد العرب لكن في بلاد الفرس In Perside aurum nullum effoditur, effoditur tamen in Arabia (Strabo, l. XVI)

٢) اطلب تاريخهُ الطبيعيّ « Fuere in Arabia quos Græci et Latini « Magos » vocant (Plin., *Hist. Nat.* XXV, 5)

وفي الانجيل الطاهر شاهدٌ آخر على سبق العرب في معرفة السيد المسيح وذلك لما ذكر المبشرون متى (ف ٤ عدد ٢٤ — ٢٥) ومرقس (٣ : ٧) ولوقا (٦ : ١٧) في جملة الجموع المتقاطرة الى استماع تعاليم الربّ اهلَ آدوم والمدن العشر وما وراء الاردن. فلا شكّ ان صيتهُ يكون بلغ العرب القاطنين في تلك الجهات. بل ذكر الانجيل (متى ٨ : ٣١ ومرقس ٧ : ٣١) ان السيد المسيح عبر الاردن وتجوّل في المدن الواقعة ما وراء ذلك النهر ومرّ بالمدن العشر (١ وصنع الآيات في بقعة الجرجاسيين. وكان اهل الحضر والمدر من العرب يسكنون تلك الانحاء. فلا يقبل العقل انهم لم يقتبسوا شيئاً من انوار ابن الله الكلمة

ثم ما ليث العرب ان نالوا نصيباً طيباً من الدعوة المسيحيّة وذلك يوم حاول الروح القدس على التلاميذ في العلّية الصهيونيّة كما اخبر القديس لوقا في سفر الاعمال (ف ٢) فانهُ صرّح بانّ العرب كانوا في جملة الذين عاينوا آيات ذلك اليوم الشريف وسمعوا الحواريين يتكلّمون بلغتهم العربية. فلا جرم انّ بعضاً منهم كانوا في عداد الثلثة الالاف المصطبغين ذلك اليوم (اعمال ٢ : ٤١) فلما عادوا الى بلادهم نشروا بين مواطنيهم ما رأوا وسمعوا من امر المسيح وتلاميذهِ

وبعد مدّة قليلة اثار اليهود على تلامذة الرب تلك الاضطهادات التي ذكرها صاحب الاعمال (ف ٨) فكانت على شبه الرياح التي تقوي الشجرة النامية وتوصّل جذورها في الارض وتنقل بزورها الى امكنة اخرى فتزداد وتتوفّر. واوّل من يُذكر من الرسل انهُ دخل بلاد العرب هو الاناء المصطفى القديس بولس فانهُ اخبر عن نفسهِ في رسالتهِ الى اهل غلاطية (ف ١ ع ١٧) انهُ بعد اهتدائهِ الى الايمان بظهور السيد المسيح لهُ على طريق دمشق واعتماده على يد حنانيّا التلميذ هرب من دمشق اليهود الى جزيرة العرب حيث اقام مدّة. فمن البديهي انّ ذلك الرسول الذي خصّهُ الله بدعوة الامم باشر منذ ذاك الحين بالتبشير فدعا الى النصرانيّة من رآهم من العرب مستعدّين لقبول دين الخلاص لئلا يحلّ بهِ ذاك الويل الذي كان يوجس منهُ فزعاً حيث قال (١ كور ٩ : ١٦) : الويل لي ان لم ابشر. وعليهِ فنصادق على قول الذين يجعلون بولس الرسول

١) اطلب في المشرق (١١ : ٨١) مقالة للاب الفرد دوران في رحلة السيد المسيح الى قيقية والمدن العشر

كاحد رسل العرب. وقد عدَّهُ بعض كتبة الروم كاوّل الدعاة الى المسيح في بُصرى حاضرة حوران

ولمّا جرى نحو السنة خمسين للمسيح افتراق الرسل اذ ساروا الى اقطار المعمور ليقوموا بمهنة التبشير التي امرهم بها سيدهم كان لبلاد العرب نصيب حسن في هذه القسمة المباركة فان التقاليد القديمة تواصل وتتفق على ان بعض الرسل تلمذوا امم العرب وقبائلهم من جهات مختلفة وقد جمع العلّامة يوسف السمعاني في مكتبته الشرقيّة في المجلّد الثالث القسم الثاني (Bibl. Or. III'. 1-30) كثيرًا من شواهد كتبة اليونان والسريان والعرب تثبت كرازة الرسل في احياء العرب وفي اقطارها المتباينة كبادية الشام وجهات طور سينا واليمن والحجاز والعراق يذكرون منهم متى وبرتلماوس وتدّاوس وشمعًا وتوما. وقد نقل بعض هذه الشواهد المؤرخون المسلمون نفسهم كالطبري في تاريخهِ (ج١ ص ٧٣٧ — ٧٣٨) وابي الفداء في تاريخهِ (١: ٣٨) والمقريزي في الخطط (٢: ٤٨٣) وابن خلدون في تاريخ البر (٢: ٤٧) والمسعودي في مروج الذهب (١: ١٢٧). هذا فضلًا عن بعض تلاميذ الرسل كفيلبس الشمّاس وتيمون وادّي او تدّاي ممن تناقل الرواة خبر بشارتهم بين العرب. وكفى دليلًا بهذه الشواهد المتعدّدة على انّ الدعوة النصرانيّة التي امتدّت الى اقاصي المعمور لم تهمل جزيرة العرب القريبة من مهد الدين المسيحي بل كان اهلها يُقبلون كل يوم الى فلسطين ويمتزجون بسكانها امتزاج الماء بالراح فيماماونهم ويتاجرونهم. وقد ذكر القديس ايرونيموس في شروحه على نبوة ارميا (ف ٣١) ونبوة زكريّا (ف ١١) انهُ كانت تقام اسواق سنويّة قريبًا من سيحم (نابلس) يأتي اليها عدد عديد من نصارى بيهود ووثنيين يتصدونها المتاجرة من بلاد الشام وفينيقية والعرب. فلا نتعدّى اذن طورنا ان اكّدنا انتشار النصرانيّة في بلاد العرب منذ عهد الرسل. وبذلك تحققت نبوّات الانبياء الذين سبقوا وتنبأوا باهتداء العرب وايمانهم بالمسيح. قال النبي اشعيا بعد وصفهِ العجيب للسيّد المسيح (ف ١١ ع ١ — ١٠) ذاكرًا الشعوب التي تقبل شريعتهُ فجعل منها آدوم وموآب. وكرّر ذلك في الفصل ٤٢ وعدّد قبائل قيدار وبلاد سلع (Pétra) وفي الفصل ٦٠ ذكر بين المستنيرين بانوار اورشليم وملكها الموعود مدين وعيفة وسبأ وقيدار والنبط وفيهِ يذكر قدومهم على المسيح ليهدوه الطافهم من ذهب ولبان. وكان النبي داود (في مزمورَيهِ ٦٧ ع ٣٢ و٧١: ٨٠

— ١٠) سبق لنا ذكر سجود العرب للمسيح وطاعتهم لهُ . ومثلهما ارميا في فصلهِ التاسع حيث ذكر « افتقاد الرب للامم المختونين مع الغلف . . . أدوم وبني عمّون وموآب وكلّ مقصوصي الزوايا الساكنين في البريّة »

وفي السنة ٧٠ للميلاد تمّت نبوة المسيح عن خراب اورشليم فلم يبقَ فيها حجر على حجر وتفرّق بقايا اليهود شذر مذر بعد ان قُتل منهم وسُبي الالوف ومئات الالوف الّا ان من كانوا تنصّروا منهم كانوا بامر الرب سبقوا وخرجوا من المدينة وعبروا الاردن وسكنوا في مدن العرب التي هناك كما اخبر اوسابيوس المؤرخ (١ . فاستوطنوا تلك الاصقاع وكان يرعاهم اساقفة من جنسهم . وقد وجد اصحاب الآثار في ايامنا عددًا وافرًا من كتبهم الدينيّة كالاناجيل الاربعة وبعض اسفار التوراة وقطعًا طقسيّة واناشيد وصلوات وغير ذلك مما يشهد على نصرانيتهم وسكناهم زمنًا طويلًا في تلك النواحي . وهذه البقايا كانت مكتوبة باللغة الفلسطينيّة اي الآراميّة الشائعة في فلسطين . ولا ريب انّ العرب الذين حلّ بينهم هؤلاء النصارى اخذوا شيئًا من تعاليمهم واستضاؤوا بانوار دينهم

واذا استفتينا اقدم آثار النصرانيّة وما كتبهُ آباء الكنيسة الاوّلون في القرون الاولى للميلاد وجدناهم يذكرون الدعوة المسيحية في جزيرة العرب امّا تعريضًا وامّا تصريحًا

فمن تنويههم بذلك قولهم جميعًا بانّ الايمان المسيحي « منتشر في العالم كلهِ » فان صحّ هذا القول في البلاد القاصية حتى الهند والعجم وجزائر البحر أفلا يكون ايضًا صحّ بالحري في بلاد العرب المجاورة لمنبع الدعوة المسيحية . فترى القديس مرقس في آخر انجيلهِ (١٦ : ٢٠) مؤكدًا بانّ تلاميذ الرب « خرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات » . وبعدهُ بقليل كان يشكر بولس الرسول اهل رومية في رسالتهِ (١ : ٨) على انّ ايمانهم يبشّر بهِ في العالم كلهِ » . وفي رسالة القديس اغناطيوس النوراني تلميذ الرسل الى اهل افسس (PP. GG., V, col. 647) يذكر « الاساقفة الذين يرعون المؤمنين في العالم كلهِ ويتفقون جميعًا بالايمان » . ومثلهُ معاصرهُ القديس بوليكربوس الذي كان يدعو المسيح « راعيًا للكنيسة الكاثوليكيّة المنتشرة في العالم كلهِ » (ibid., col. 1035) فهذه النصوص وغيرها كثير تثبت صريحًا انتشار الدين المسيحي في العالم كلهِ فتشمل ايضًا بلاد العرب ولولا ذلك لَما امكن القديس اوغسطينوس

١) اطلب تاريخهُ الكنسي ك ٣ ف ٥ (PP. GG., XX, 221)

ان يقول في شرحهِ على المزمور ٦٦ (PP. LL. t. 36, col., 669) « نحن الكاثوليك منتشرون في الارض كلها لاننا نعلن بكل مكان ما للسيد المسيح من المجد ونشترك بهِ » ولما استطاع قبلهُ كيرلس الاورشليمي ان يقول في تعليمهِ الثامن عشر (PP. GG., t. 33, col. 1043) : « تُدعى كنيستنا كاثوليكية لأنها منتشرة في كل المسكونة من اقاصي تخوم الارض الى اقصى حدودها ». وسبقهما القديس قبريانوس فقال في كتاب وحدة الكنيسة (PP. LL., IV. col. 502) : « انَّ الكنيسة تُلقي اشعتها في كل العمور ». وقال معاصرهُ القديس ايريناوس في كتابهِ ضدّ الهرطقات (PP. GG. VII. col. 550) : « انَّ الكنيسة المنتشرة في سائر العالم قد ورثت الايمان من الرسل وحفظتهُ بكل حرص »

وزاد عن هؤلاء ايضاحاً في اواسط القرن الثاني للمسيح القديس يوستينوس الشهيد من اهل نابلس في مباحثتهِ مع تريفون اليهودي (PP. GG., VI, col. 750) فعدَّ بين من دانوا بدين المسيح « الساكنين في الحيم واهل البادية » قال : « ليس مطلقاً جنس من البشر سواء كانوا من اليونان او البرابرة وبايّ اسم تسمَّوا حتى العائشين في العَرَبات (الاسقيثيين) والساكنين في الحيم الذين يرعون المواشي واهل البادية الذين لا يحلّون في بيت ألّا وبينهم جموع يقدّمون الصلوات والقُربات للربّ باسم يسوع المصلوب »

وقال ايريناوس معدّدًا الشعوب التي دخلت بينهم النصرانيّة (PP, GG. VII. col. 554) وقد دعا العرب باهل الشرق كما روى مفسّروهُ : « هذا الايمان المسيحي هو اليوم منبثٌّ في العالم كلهِ ... فترى الالسنة مختلفةً والنفس واحدةً والقلب واحدًا سواء اعتبرتَ آل جرمانية او الايبريين او القلتيين او سكّان الشرق او مصر او ليبية والامم التي في اواسط الدنيا فكلهم يعتقدون اعتقادًا واحدًا يشبه ايمانهم الشمس التي تضيء العالم كلَّهُ وهي واحدة »

وللمعلم ترتليان في اوائل القرن الثالث نصوص متعدّدة يؤكد فيها انتشار النصرانيّة بين كل شعوب زمانهِ مهما كانت بعيدة او مجهولة فما قولك بالعرب؟ قال في كتابهِ الى الامم (Ad Nationes, c. 8) « تأمّلوا انهُ لا يوجد اليوم أمّةٌ الّا ودخلت فيها النصرانيّة (non ulla gens non christiana) وفي الفصل السابع من ردّهِ على اليهود يعدّد في جملة المتنصرين ليس فقط الامم الخاضعة للرومان

« ولكن غيرها كثيرة كالسرماتيين والداقيين والجرمانيين والاستيشيين وقبائل مجهولة واقطار متفرقة وجزائر البحر فيها كلها يُعرف اسم المسيح وفيها يملك »

وكثيرًا ما دعا الكتبة جزيرة العرب باسم الهند لاسيما جهات اليمن وقد شاع هذا الاسم بهذا المعنى (اطلب البولنديين في المجلد العاشر من اعمال القديسين من شهر ت ١ ص ٦٧٠) . واليها اشار القديس يرونيم الذهبي في ردّه على اليهود (PP. GG., XXX. 500) قال: « انظر بأيّ سرعة انتشرت الكنيسة في كل اطراف المسكونة وبين كل الشعوب وذلك بمجرّد فضل الاقناع حتى انّ أممًا كثيرة تركت أديانها وتعاليم اجدادها وشيّدت هياكل لتعبد فيها الربّ فمنها ما هو واقع في ممالك الرومان كالاسقيثيين والمغاربة واهل الهند ومنها ما هو خارج عن تخوم الرومان الى جزائر بريطانية واقاصي العالم »

وبعضهم قد دعوهم صريحًا باسم العرب او الاسماعيليين . قال اوزوبيوس في القرن الثالث للمسيح يذكر الشعوب الوثنية التي بشّر بينها الرسل فأنشئت الكنائس لمن تنصّر منهم (ك ٢ ف ٥ و ١٢): « انظروا العجائب التي جرت في انحاء العمور منذ ظهور المسيح حتى انهُ لا يكاد يوجد الآن أمة عريقة بالهمجيّة ألا لطّفت خشونتها محبّةً به واخضعت عقلها للايمان بتعاليمه فاتّفقت على ذلك اجيال الناس المتباينة المختلفة طباعًا وآدابًا . ومما نقدر أن نحصيهُ من هذه الشعوب اهل الهند والصين والفرس والماديين والذين يسكنون في بلاد العرب ومصر وجهات آسية وسوريا . وفي كل الجزائر والاقاليم »

فترى انهُ احصى بلاد العرب في جملة من دان للمسيح في ذلك العهد . وقد ذكرهم المؤرخ سوزمان (PP. GG. t, 67, 1476) في القرن الرابع وافاد « ان بعض قرى العرب ودساكرهم يوجد فيها اساقفة » . وكذلك صرّح بذكرهم تاودور يطس في القرن الخامس في كتابه المعروف بدواء اضاليل اليونان (PP. GG. T, 88 p, 1037) قال: « ليس فقط قد خضعت للمسيح الامم الخاضعة لشرائع الرومان كالحبش المتاخمين لنبية وقبائل الاسماعيليين ... بل حتى غيرهم من الامم اخنوا رؤوسهم لتعاليم الصيادين وشرائع الانجيل كالسرماتيين والهنود والعجم والصينيين (Serae) والبريطانيين والجرمانيين » . وقال مثل ذلك في محل آخر في كتابه المسمّى التاريخ الرهباني (PP. GG. t, : 82, q. 1471)

(لهُ بقية)